الدراسات التراثية

(الدراسات التراثية بين العلم والمرجعيات الفكرية)
(٢)

د. أحمد الأصفر
د. أمل حمدي دكاك

قسم علم الاجتماع
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

نموذج تطبيقي في اختلاف الدراسات التراثية ذات الصلة بالعقيدة الإسلامية

يهدف النموذج المطروح للحوار إلى توضيح أن فهم نص المادة التراثية أيا كانت إنما يأتي بحسب المرجعية الفكرية والعقلية التي تسيطر على الوعي الإنساني بطريقة مباشرة أحيانا أو بطريقة غير مباشرة أحيانا أخرى، فالمادة التراثية لا يمكن أن تحمل معنى مستقل عن البيئة الحاضنة لها، ولما كانت هذه البيئة هي التي تنتج المرجعية الفكرية للباحث، وللمعايير التي يعتمدها في تقييم الأشياء، من حيث زوايا الرؤية، ومن حيث نقاط الارتكاز، فإن اجتهاداته في التفسير والفهم سرعان ما تشكل مصدرا جديدا لإعادة إنتاج البنية نفسها، وإنتاج معاييرها من جديد

وبالتالي يصبح الإبداع الفكري مستحيلا في ظل ظاهرة الاستقطاب التي يعيشها الباحث، ولهذا يلاحظ أن عددا كبيرا من المفكرين يجتهدون في الرد على الانتقادات التي يتم توجيهها إلى منظوماتهم الفكرية من خلال هذه المنظومات نفسها، وعلى أساس الحكم على الأشياء في ذاتها، الأمر الذي يقلل من مصداقيتها المعرفية في كثير من الأحيان.

من المعروف أن القرآن الكريم واحد بين المسلمين، في كل أنحاء العالم، وعلى مدار التاريخ الإسلامي أيضا، وعلى الرغم من ذلك فإن تعدد التفاسير جاء على درجة كبيرة من التنوع والاختلاف والتناقض، وتعد هذه التفسيرات منتجات إنسانية اجتماعية، فإذا كان القرآن الكريم كتابا من الله جل وعلا، فإن التفسيرات المقدمة له هي اجتهادات بشرية، وتشكل عنصرا أساسيا من عناصر التراث الإسلامي، تختلف في مضامينها بين علماء دول مشرقه، وعلماء دول مغربه.

في دول الشرق الإسلامي كانت ومازالت تنتشر ثقافات عمقها عشرات الآلاف من السنين، مبنية على البعد الوجداني والعاطفي في شخصية الإنسان، والتي شكلت الأساس في بناء ثقافته وحضارته وتشريعاته، ولا يمكن تصور أي نمط من أنماط الحياة إلا وانطبع بالطابع الوجداني، بما يحمله من أبعاد عاطفية، واستقرت الثقافة على أن قوة الإنسان إنما هي في وجدانه، وسيطرته على ذاته، ويتجلى ذلك في الفلسفات الهندية، والفارسية، وغيرها من الفلسفات التي كان مصدرها الشرق،

في هذه الشروط الثقافية انتشر الإسلام، وسرعان ما تجلى تأثير هذه الثقافات في التفسيرات الدينية للقرآن الكريم ولأحكام الشريعة الإسلامية، فاكتسب الإسلام من خلال هذه الثقافات طابعا وجدانيا، فظهرت تفسيرات ابن سينا، والفارابي، والحلاج وابن عربي، والسهروردي وغيرهم التي وجدت في العقيدة الإسلامية تعزيزا للبعد الوجداني في شخصية الإنسان، فكانت نظريات الفيض الإلهي، ونظرية الإشراق وغيرها التي شكلت الأساس الذي بني عليه الإسلام من منظور هؤلاء الفقهاء والفلاسفة.

وفي سياق هذه التصورات يصبح الجهاد الأكبر القائم على جهاد النفس بمثابة المفصل الأساسي للإيمان، ومن ذلك نشأت الطرق الصوفية التي تجعل من تهذيب النفس وتطهيرها مدخلا أساسيا لمعرفة الله لما تنطوي عليه من تنمية الوعي الوجداني في شخصية المؤمن، ولما يترتب على ذلك من تطوير للقدرات الذاتية الكامنة في شخصية الإنسان من جهة، ومن توجيه لها لأغراض وأهداف تسمو على المصالح الدنيوية والرغبات التي يمكن أن تشد الإنسان إلى أشكال مختلفة من الصراع والتناقض وتحول دون الوصول إلى الإيمان الصحيح.

أما في بلدان المغرب العربي، حيث انتشر الإسلام أيضا، فكانت الخلفية الثافية والتاريخية مختلفة تماما، فهؤلاء كانوا أقرب مكانيا إلى الحضارة اليونانية، حيث تمجيد العقل، واعتباره الأساس في بناء شخصية الإنسان، فمن المعروف أن نظم الحياة الاجتماعية والقانونية والدستوية بنيت في تلك المجتمعات على أساس أولوية العقل في الحكم على الأشياء، فما من ظاهرة إلا ويمكن فهمها من وجهة نظر عقلية، ولا يمكن بناء الحضارة إلا على أساس بعدها المنطقي والعقلي.

وفي إطار هذه الثقافة اجتهد المسلمون في بلدان المغرب في تفسيراتهم للقرآن الكريم والشريعة الإسلامية، فكان أن وجدوا في الإسلام أفضل الطرق والأساليب التي تعزز مبدأ العقل، وضرورة استخدامه في الحكم على الأشياء، ويعد ابن رشد وابن طفيل وابن ماجة من النماذج الأكثر وضوحا وإسهاما في هذا المجال، بالإضافة إلى غيرهم الكثير، فمعرفة الله جل وعلا، ومعرفة العالم، ومعرفة الشريعة مبنية في أساسها على استخدام العقل، وبدون استخدام العقل فإن الأمر سيؤدي بالتأكيد إلى فهم مشوه للدين وللشريعة على حد سواء.

أما في المنطقة العربية، فجاء الأمر مختلفا، فالعرب في أساسهم لم تكن لديهم رؤية فلسفية واضحة للوجود وللطبيعة وللإنسان، ولهذا جاءت رؤيتهم للإسلام مختلفة تماما، فكانت الحياة الاجتماعية قبل الإسلام مبنية على التنظيمات القبلية والعشائرية المتعددة والمتناقضة، والتي سرعان ما ظهرت في النظم الدينية والسياسية للدولة، وهو الأمر لذي يتجلى في ظهور الدولة الأموية، والدولة العباسية، والدولة الفاطمية، وصولا إلى الدولة العثمانية، فكل التنظيمات الاجتماعية والسياسية أخذت الطابع العشائري والقرابي والقبلي.

فالثقافة العربية قبل الإسلام كانت مبنية في مجملها على مفهوم الانتماء، وعلى مفهوم الارتباط بالجماعة التي تعلو قيمته على أية قيمة أخرى، وما أن انتشر الإسلام في الجزيرة العربية حتى وجد فيه العرب قوة جديدة تعزز انتماءهم، وتقوي شوكتهم في سياق علاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مع الآخر، وباتت معايير الانتماء للعقيدة وكأنها امتداد لانتماء الفرد للجماعة، وحتى القضايا الفكرية والعقلية التي ظهرت فيما بعد نتيجة التواصل مع الآخرين باتت مبنية على مفهوم الانتماء، وليست مبنية على أساسها الفكري.

وسرعان ما تجلى ذلك في التصورات السائدة عن الإسلام، فظهر التأكيد على تغليب مفاهيم الجماعة ووحدتها والارتباط بها، حتى بات الإسلام انتماء اجتماعي جديد، شأنه في ذلك شأن الانتماء للقرابة والعشيرة، وبعد أن كانت المذاهب الدينية تعبير عن نشاط الفكر من خلال عملية الاجتهاد، أصبح الانتماء للمذاهب على أساس الوراثة وكأنه رابطة دم، ولم يعط أهل المشرق من العرب الأهمية الكبيرة لتفضيل العقل كما كان حال المغاربة، كما أنهم جعلوا الاهتمام بالجوانب الوجدانية بدع لا أصل لها، وبات الجهاد في عرفهم جهاد المقاتلة، ولا صلة له بجهاد النفس.

ولما كانت المنطقة العربية موطنا لتلاقي الثقافات، سرعان ما ظهرت فيها تيارات دينية تأخذ بالنظرية الوجدانية في فهم الدين، وتيارات مناقضة لها تأخذ بالتفسيرات العقلية، بالإضافة إلى من وجدوا في الإسلام عامل قوة للتنظيمات الاجتماعية والروابط التي تجمع الأفراد، وازدادت مظاهر التناقض بين كل المكونات، وبات كل فريق يرى في الإسلام ما لا يراه الآخرون، ويعتقد بمصدريته دون أية مصدرية أخرى، ومرجعية دون أية مرجعية، حتى أصبح التراث الإسلامي يحمل في مضامينه كل أشكال التنوع في إطار الوحدة التي يمكن أن تتجزأ .

وفي سياق هذه المشكلة ظهرت المشكلة الأكثر تعقيد المرتبطة بعقلية الاختزال، فلم تعد المشكلة فكرية أو فلسفية إنما اكتسبت طابعا عقائديا، فكل تيار من التيارات بات يختزل الإسلام في ذاته، فمن تبعه آمن ومن خرج عنه فهو ضال، وتنطبق عليه شروط الكفر والخروج عن الإسلام، وجاءت عمليات التوظيف السياسي للدين لتعزز مبدأ إقصاء الآخر، فقد تم جرى قتل الخلفاء عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وعلي ابن ابي طالب، رضوان الله عليهم واتهموا بالكفر، والخروج عن الدين، وبعدها قتل غيرهم الكثير، ومازال الأمر يتجدد اليوم بفعل التوظيف السياسي للدين.

- والسؤال العلمي الذي لابد من الإجابة عليه، هل يمكن فهم التراث في كليته، أو في أية جزئية من جزئياته دون الاعتماد على مرجعية فكرية أو اجتماعية أو ثقافية.؟
- وهل يمكن التعامل مع تراث الأمة، أيا كانت هذه الأمة بمعزل عن المرجعيات الثقافية والحضارية لمكوناتها...؟
- قد تبدو الإجابة صعبة للغاية، فالإنسان دائما ابن بيئته الزمانية المكانية كما سبقت الإشارة إلى ذلك، مما يجعله يعيد إنتاج نفسه باستمرار، وأن المجتمع يعيد إنتاج ذاته.

- وفي هـذا الإطـار تكمـن مشـكلة البحـث التراثـي، فالباحث الذي يأخذ بالدراسات التراثية ذات الصلة بتفسير القرآن الكريم مثلا، يجد نفسه بين مسارين مختلفين، لا بد أن يكون واعيا بكل منهما، وقادرا على التحكم بهما طيلة مرحلة دراسته، وإذا لم يتمكن من فهم المشكلة التراثية فإنه سرعان ما ينجذب إلى مكوناتها وجزيئاتها ويصح عاملا جديدا من عوامل إعادة إنتاجها.

- أما المسار الأول فيتمثل في أن يجد نفسه باحثا عن الحقيقة التي أرادها الله جل جلاله من النص القرآني، فيقارن بين هذه التفسير أو ذاك وبين هذا الرأي وغيره حتى يتمكن من الوصول إلى الفهم الصحيح للنص، ومن الطبيعي أن يجد تناقضات كثيرة بين المفسرين، وسرعان ما يجد نفسه يتخذ مواقف مؤيدة لهذا التفسير أو ذاك، ومعارض لهذا التفسير أو غيره، حتى يصبح واحد من المجتهدين في التفسير الذي يحدد موقفه من الآخرين في ضوء المعرفة التي تشكلت في وعيه، وسرعان ما تتشكل في وعيه مرجعية يعتمد عليها في الفهم.

- ويختلف عن ذلك المسار الثاني، ففي هذا المسار يصبح الهم العلمي بالنسبة إليه تحليل المرجعيات الفكرية التي اعتمد عليها المفسرون السابقون، وذلك لفهم مظاهر الاختلاف نفسها بوصفها موضوعا للدراسة، وفي هذه الحالة لايجد الباحث التراثي نفسه معنيا بالوصول إلى الحقيقة التي يتضمنها النص القرآني، إنما يولي اهتمامه بالعوامل التي جعلت المفسرين يختلفون في عملية التفسير، فنقطة الارتكاز في هذه الحالة ليست النص بذاته، إنما التفسيرات المعطاة له، أما تفسير النص فيمكن أن يهتم به بوصفه متدينا، ولكن ليس بوصفه باحثا في التراث.

- بهذه الطريقة أخذ العدد الكبير من المستشرقين بدراسة التراث العربي، وبدراسة التفاسير المختلفة للقرآن الكريم، ولشخصية الرسول، وحتى لكل الحوادث التاريخية التي عالجوها في بحوثهم ودراساتهم، فلم يجدوا أنفسهم معنيين باكتشاف المعاني والدلالات التي يحملها النص القرآني، أو الحديث النبوي، إنما كان تركيزهم على تفسير مظاهر التعدد والتنوع في التراث، وكيف يمكن جعلها مصادر تناقض وصراع، أو عوامل توافق وألفة، وبهذه الطريقة أيضا يستطيع الباحث التراثي تناول القضايا التراثية في المجتمعات الأخرى، والحضارات المختلفة.

- وبهذه الطريقة أيضا يتفاعل الباحث التراثي مع قضايا مجتمعه وحضارته، إذا ما أراد أن يجعل من التنوعات ومظاهر الاختلاف عوامل قوة بالنسبة إلى المجتمع، فإذا كانت عقلية الاختزال (التي تختزل الدين في مذهب، أو تختزل الوطن في تيار سياسي دون غيره، أو شخصية سياسية دو غيرها، أو تختزل المجتمع في أي من مكوناته) تهدد أي مجتمع بالانقسام والتفتت، فإن مهمة الباحث العلمي الوطني في مجال التراث أن يعيد ارتباط الأجزاء مع بعضها في ضوء رؤيته للمستقبل الذي يتطلع إليه المجتمع، وفي ضوء عوامل التكامل بين مكوناته.

وشكرا لحسن إصغائكم.